مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الرابع ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــــداد

ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ ـ كانون الاول ١٩٨٧ م

مُسَوِّغات تجديد كتابة التاريخ

الدكتور صالح احمد العلي

رئيس المجمع

تجري في الازمنة الحديثة لاعادة كتابة التاريخ دعوات ومحاولات فردية وجماعية ورسمية في عدد غير قليل من اقطار العالم ، وخاصة في البلاد العربية ؛ وقد اثمرت الجهود التي بذلت في هذا المضمار عدداً كبيراً من الابحاث عن طبيعة الدراسات التاريخية ونطاقها واساليبها ، وكذلك في تقديم صور جديدة منوعة لكتابة التاريخ .

ازدياد تقدير اهمية التاريخ :

ولعل من اهم دوافع هذه المحاولات هو الادراك المتزايد باهمية دراسة التاريخ في البناء الثقافي والتوجيه القومي والاخلاقي للامة ؛ وقد تجلى هذا الادراك في الغرب منذ بداية القرن التاسع عشر حين جعل التاريخ احد المواضيع الالزامية في مناهج دراسات المدارس الرسمية في فرنسا وانكلترا وامريكا ، ثم تتابعت الدول الاخرى في وضعه ، وتلا ذلك اهتمام الجامعات بدراسته وتعيين اساتذة مختصين لهذا الغرض . واعقب ذلك انشاء اقسام خاصة للدراسات التاريخية فانشئ قسم التاريخ في كل من جامعتي اكسفورد وكبيرج سنة ١٩٠٠ وفي جامعة لندن سنة ١٩٢٠ .

ومما برّر قيام هذه المحاولات الثغرات الكثيرة في الكتب التاريخية التي كانت متداولة ، وتزايد المعلومات الجديدة المكتشفة ، والتطورات الواسعة التي حدثت في دراسة كثير من فروع العلوم الانسانية وثبتت حقائق جديدة عن سلوك الانسان وتطور المجتمع . وتطور النظرة الى نطاق التاريخ ، وتزايد

امكانيات الدولة في انماء دراسته ، واهتمام كثير من الامم في الافادة منه لتثبيت بعض ارائها في تمجيد الامة ، او تبرير بعض مؤسساتها ، او الانتقاص من الامم الاخرى المعادية لها .

تطور مفهوم « التاريخ » ونطاق بحثه

ولعل من اول المسوغات المقبولة في اعادة كتابة التاريخ هو تطور مفهوم التاريخ ونطاق بحثه ، فتعبير «التاريخ» له معان متعددة تؤثر في تحديد بحثه ، فالكلمة قد تعني « الزمان » اطلاقا ، فتقول « تاريخ ميلاد فلان » اي زمن ميلاده ، وبهذا المعنى اطلقت كلمة « تاريخ» على كل دراسة للماضي ، ومنها تاريخ الارض ، وتاريخ الكيمياء ، وتاريخ الفلسفة الخ ، وبهذا المعنى اطلقت كلمة « التاريخ » في العربية على عدد كبير من الكتب التي تبحث في رجال الحديث ، او مايسمى علم الرجال وعني اكثرها بتحديد سن ولادتهم ووفياتهم .

واطلق تعبير « التاريخ » (١) على الحوادث البارزة التي مرت بالانسانية او بأمة او مجتمع محدود ، مرتبة تبعا لتسلسلها الزمني ؛ ولما كانت الحوادث السياسية منذ اقدم الازمنة هي ابرز الحوادث الظاهرية ، لذلك كان يطلق على الكتب التي تبحث هذه الحوادث « التاريخ » وهذا واضح في اكثر المؤلفات العربية في هذا الموضوع ، حيث اختصت بمتابعة ذكر هـذه الحوادث ، مع اضافات احياناً لبعض حوادث اخرى كشواذ الاحوال الطبيعية من مجاعات واوبئة وزلازل وحتى احياناً ولادة بعض المخلوقات الشاذة في تركيبها الجسدي .

---

(١) استعمل العرب لوصف حوادث الماضي عدة تعابير منها الحكايات ، والاخبار ، والسير ، والتاريخ . فاما الحكايات فقد اطلقت في الغالب على حوادث محدودة قد لا يكون لها واقع تاريخي ؛ واما الاخبار فالغالب ان الكتب التي لها هذا العنوان تسرد حكايات لا تراعي في ترتيب عرضها التعاقب الزمني . فهي اشبه بالامالي ، سوى ان مادتها تدور حول من تتحدث عنه ؛ اما « السير » فتطلق في الغالب على اعمال من تتحدث عنه ، وهي تراعى الى حد كبير التعاقب الزمني في ترتيب مادتها ، والغالب انها تتحدث عن الاعمال السياسية والحربية .

غير انه حدث في الازمنة الاخيرة تطور واسع في مفهوم نطاق التاريخ (٢) ، صيغت له تعريفات قد تختلف في الفاظها ولكنها تتفق بانها « دراسة نشاطات الانسان الذي يعيش في المجتمع بمختلف جوانبها ، ومرتبة حسب الزمن » وبذلك اتسع مفهوم التاريخ واصبح المطلوب من الباحثين فيه الا يقتصروا على بحث النشاط السياسي وحوادثه البارزة ، وانما تمتد ابحاثهم الى مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والمعاشية والفنية والفكرية ، سواء كانت بارزة للعيان او عاملة بهدوء ، وبهذا اصبح نطاق التاريخ واسعا ، ولكنه ظل مقيدا بالزمن مراعيا في ترتيب ابحاثه التعاقب الزمني

تمييز المصادر الاصلية عن المقتبسات

ورافق هذا تطور في نوع المصادر التي تستقى منها المعلومات وفي الحكم على هذه المصادر . فقد كانت اغلب المصادر في التاريخ العربي خاصة كتابات دبجها افراد معنيون بتتبع الاخبار ، ممن لهم اعمال وحرف متنوعة ، وان كان اغلبهم من « المثقفين » المعنيين بالمعرفة ، وغالبيتهم المطلقة ممن لم يسهموا بالحوادث . وربما لم يتصلوا بالمسهمين بها ، وانما يعتمدون في ذلك على السماع فيدونون ما يرونه صحيحا ، وهو صحيح بهيكله العام ولكنه قد لا يكون دقيقا او شاملا في تفاصيله ، وما دام الكاتب يكتب تعبيرا عن معرفته . فهو يستعمل اسلوبه الخاص والمفردات اللغوية كما يفهمها ، وقد تكون مما هو سائد الاستعمال في زمنه ، او مما له مفهوم خاص في ذهنه مما قد يجعل

(٢) الفت كتب كثيرة في دراسة التطورات الحديثة في الكتابة التاريخية وجمع في كتابه « منوعات التاريخ » (بالانكليزية) مقتطفات لعدد كبير من اشهر هذه الكتابات في الغرب ، ومن الكتب المهمة في هذا الميدان « التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر » لكوج و « فكرة التاريخ » لكولنجوود ، و « تاريخ الكتابة التاريخية » لبارز و « الاتجاهات الحديثة للدراسات التاريخية » لباراكلوو « علم التاريخ عند المسلمين لفرانز روزنثال ، والكتب الاربعة الاخيرة مترجمة الى العربية .

تعابيره غير دقيقة . ومما يزيد الامر تعقيدا ان كثيرا من المتأخرين ينقلون عن احداث الماضي ما قاله القريبون منها ويحافظون على تعابير مصادرهم الاصلية حتى وان كانت غير دقيقة او مخالفة لما يسود عند هؤلاء المتأخرين . ويجدر ان نشير هنا الى ان لجوء المتأخرين الى ان النقل عن الاقدمين لم يرافقه التزام بالاشارة الى المصادر التي نقلوا عنها ، وفي العربية كتب كثيرة نقلت فصولا باكملها ، او كتابا باكمله من كتاب سبقه ، مع اشارات عارضة احيانا الى مصدرهم ، او اغفال تام لذكره احيانا ؛ وقد يسّر تزايد معرفتنا بالكتب ومحتواها معرفة مصادر معلومات كثير من الكتب الضخمة . وهي اذا جمعت تكون مقدارا كبيرا اكتفى منه بذكر ما نقله ابن الاثير وابن خلدون عن الطبري في حوادث القرون الثلاثة الاولى للاسلام . ونقل عريب بن سعيد كتابه « صلة تاريخ الطبري » الجزء الخاص بالمقتدر من كتاب الاوراق للصولي بعد حذف ما فيه من شعر ، وما نقله المقريزي في كتابه «اتعاظ الحنفا» من المسبحي من المعلومات عن حوادث السنوات ٣١٤ — ٣١٨ هـ .

وقد اشار بعض القدماء الى اعتماد بعض المؤلفين على كتب ممن سبقهم ونقلهم لها جملة او بكثرة دون الاشارة الى مصادرهم ، وسمى بعض علماء الحديث ذلك « سلخا » .

وعنى كثير من المؤلفين العرب في القرون الاربعة الاولى خاصة بذكر المصادر التي اعتمدوا عليها ، وذكروا اسماء من رووا عنهم دون ذكر اسماء كتبهم ، ولهذا الذكر فائدة كبيرة في متابعة اصول المعلومات . غير انه لا يكفي لمعرفة شكل الكتاب الاصلي . فقد يكون الاقتباس مقتطفات راقت للمقتبس ولا تستوعب كل الكتاب ، وقد يترك ما نراه اليوم اهم . او قد لاتوضع مسلسلة وفق ترتيب المؤلف الاصلي ، فهي مذكورة بمنظور الناقل المتأخر وليس بصورتها الاصلية ؛ يضاف الى ذلك ان من عنى بذكر مصادره كان يذكر اسم الراوي وليس الكتاب الذي نقل عنه ، وهذا واضح من كتب

مشهورة عنيت بذكر مساندها كتاريخ الطبري ، وانساب الاشراف للبلاذري، والاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، وحلية الاولياء لابي نعيم. ووفاء الوفا للسمهودي وخاصة في ما نقله عن ابن زبالة والزبير بن بكار ومحمد بن الحسن . (٣)

وقد يسرت بعض الابحاث النقدية في المصادر تمييز الاصول عن النقول واذكر من ذلك المقدمات التي وضعها في تحليل المصادر كل من بارتولد في كتابه « تركستان في العهود الاسلامية » وكلود كاهين في كتابه « سوريا في عهد الحروب الصليبية الاولى » وليفي برفنسال في كتابه تاريخ العرب في الاندلس. وحسن ابراهيم حسن في كتابه «الفاطميون في مصر» وبوزورث في كتابه « الغزنويون » وجب في مقاله « مصادر دراسة سيرة صلاح الدين » وكذلك الاشارات الغنية التي وضعها روزنثال في كتابة علم التاريخ عند المسلمين عن المقتبسات من كثير من كتب التاريخ .

الوثائق

والمصدر الاساسي في دراسة التاريخ هي « الوثائق » ونقصد بها الكتب الصادرة من السلطات السياسية والادارية الحاكمة ومدوناتها الرسمية؛ والواقع ان معظم الحكومات منذ القديم عنيت بتدوين اعمالها وما تصدره من اوامر ، وكانت تكتب ذلك على مواد مختلفة منها الاحجار والواح المعادن ، والجلود والادم . كما استعملت بعض البلاد . وخاصة مصر والمغرب ، اوراق البردي والقراطيس . وعندما انتشر استعمال الورق في اواسط القرن الثاني الهجري. عمد الخلفاء المسلمون الى اختيار اجود انواع الورق لتدوين وثائقهم(٤)، وحرصوا على الحفاظ على نسخ مما يصدرون في دواوين منظمة، والفت في

(٣) انظر بحث الدكتور جواد علي « موارد تاريخ الطبري » وبحثنا « مصادر دراسة تاريخ المدينة والحجاز » المنشورين في مجلة المجمع العلمي العراقي .

(٤) انظر تفاصيل اوفى في كتاب « تاريخ العلم » لسارتون وكتابنا « دراسات في تاريخ الحركة الفكرية في صدر الاسلام » .

قواعد ونظم كتابة هذه الوثائق كتب وصلنا عدد منها ومن اشهرها « أدب الكاتب » للصولي و « البرهان في علوم البيان » لابن وهب ، و« مواد البيان » لعلي بن خلف و« التثقيف » و « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمري و « صبح الاعشى » للقلقشندي .

غير انه تواجهنا صعوبة وتقضي علينا ان نقلل من اهمية الوثائق : فاولا ان الغالبية المطلقة للوثائق الصادرة في العصور القديمة والوسيطة قد اندثرت ولم يعد لها اثر الا عند من نقل كل او بعض مضمونها ، ومثل هذا النقل غير مأمون بدقته . والامثلة على ذلك في التاريخ الاسلامي كثيرة ، اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر معاهدة الرسول (ص) للنجرانيين ، التي نقلها عدد من الرواة باختلاف الالفاظ . وكتاب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى واليه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن فقد رواه كل من ابي يوسف وابن سعد وابو عبيد القاسم بن سلام بصيغة تختلف بترتيب فقراتها وضبط بعض الفاظها . وكتاب تعيين الرشيد ولديه الامين والمأمون وليين العهد ، فقد رواه الطبري والازرقي بصيغ مختلفة .

يسر تزايد المادة التي اصبحت في متناولنا تدقيق كثير من النصوص وضبط الفاظها وتحديد تاريخها ، وهذا يكوّن مبررا لاعادة الكتابة بما يؤمن الافادة من هذه المستجد .

ان الكتب المدونة هي المعتمد الاوسع والاهم في دراسة التاريخ . واول ما ينبغي عمله هو ضبط قراءتها(٥)وفهم مفرداتها بالصورة التي ارادها المؤلف

(٥) نشرت في العربية عدة كتب عن اصول ضبط النص في الكتب العربية من ابرزها « اصول نقد النصوص ونشر الكتب » لبرجشتراسر ، و « تحقيق النصوص ونشرها » لعبد السلام هارون ، « قواعد طبع وترجمة النصوص العربية » لبلاشبروسوفاجية (بالفرنسية) و « منهج تحقيق النصوص ونشرها » للدكتور نوري حمودي والدكتور سامي مكي .

ثم نقد مادتها، وكل من هذه الامور تتطلب جهودا غير قليلة قد تستلزم اعادة النظر في تصويبها ، ومرجع ذلك طبيعة الخط العربي واللغة العربية .

فاما الخط العربي فانه يتكون من حروف متشابهة الاشكال . تتمايز بمدى امتداد او ميل اطرافها . ويمكن اجمال اشكالها بالمجموعات التالية :

(١) ب ت ث د ذ ر ز س ش ل ن

(٢) ج ح خ ع غ

(٣) ص ض ط ظ

(٤) ف ق م

(٥) منفردات أ ه و

ويزداد تعقيد قراءتها عندما لا يعتني الكاتب بخطه ولا يبرز الامالات ولكن حتى في هذه الحالة يبقى التشابه مصدرا للاشتباه وعدم الدقة .

وقد عولج بعض هذا الامر بالتنقيط الذي نفتقد الوثائق اللازمة للبت في تاريخ نشأته . علما بان اقدم بردية عربية اكتشفت ترجع الى سنة ٢٢ هـ ، وفي حروفها تنقيط (٦) مما يدل على قدم التنقيط .

غير ان كافة ما وصلنا من المدونات على الحجر او الخشب او المعادن او القماش . وخاصة ما كتب بخطوط مزخرفة . خالية من التنقيط ، الامر الذي يجعل قراءة كثير منها تقوم على الحدس والتخمين وليس على الجزم الثابت ، ويتطلب اعادة تدقيقها باستمرار للتثبيت مما تدل عليه الكلمات .

---

(٦) بردية رينر رقم ٥٥٨ المحفوظة فى فينيا . وعن تفاصيل اوفى عن اشكال كتابة الحروف في اوراق البردى انظر كتاب « من عالم البرديات العربية » للاستاذ جروهمان .

لاتقتصر مشكلة الخط على الخط العربي وحده، وانما تمتد الى خطوط معظم اللغات الاخرى ، ففي السريانية مثلا ٢٢ حرفا ، بعضها يقرأ بشكلين يقررها سياق الكلام ، وكثيرا ما يتطلب ان يفرض القارىء فكره فيختار صوتا دون اخر ،ويقرر قراءة دون اخرى ، وفي هذا اشكال غير يسير وخاصة عند قراءة نصوص فيها كلمة مفردة او فيها اسماء اعلام غير مألوفة .

وتزداد هذه الصعوبات في قراءة النصوص المكتوبة بخطوط بطل استعمالها وبلغات توقف تداولها كالمسمارية والبهلوية والتي كتبت في اولهما نصوص بالسومرية والاكادية والبابلية عبر قرون طويلة ، وكذلك البهلوية التي كانت احدى الخطوط التي كتبت فيها الفارسية القديمة .

تطـور الدراسـات اللغوية : معاني المفردات

والمكوِّن الاساس للغة هي مفردات الالفاظ والكلمات التي بدون معرفة معانيها بالوجه الذي قصده الكاتب لا يمكن معرفة محتوى المدونات المكتوبة بشكل سليم .

والمعرفة السليمة لمعاني الكلمات التي في المدونات المكتوبة بالعربية يواجهها عدد من القضايا التي ينبغي اخذها بنظر الاعتبار ، اذ لاريب في ان اللغة العربية السليمة اي الفصحى التي تثبتت معظم مفرداتها بنص القرآن الكريم والشعر الفصيح ، ثم استقرت في المعاجم المعتمدة . وكل هذه المصادر الاساسية تظهر ان عددا غير قليل من الكلمات تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها، فكلمة « عين » تعني العضو المعروف ، و « عين » تعني الذهب وهو المعدن المعروف .

والكلمات رموز لمعاني يقررها الاستعمال ، وادقها ما ساد معناه المفرد عند الجميع . غير انه كثيرا من الكلمات كان لكل منها عدة معان ، او تطورت مدلولاتها مع احتفاظها برسمها . وفي القرآن الكريم امثلة غير قليلة على ذلك ، اذكر منها كلمة « امة التي وردت في القرآن الكريم في اربع وستين موضعا يدل سياق

ماذكرت فيه على تعدد وتنوع معانيها ، فقد وردت في القرآن الكريم بمعنى « صنف» الحيوان « ما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم »(٧)، وذكرت بمعنى التقاليد السائدة « انا وجدنا اباءنا على امة وانا على اثارهم مقتدون » (٨) . وورد في اية ان ابراهيم كان امة (٩) وانه «كان الناس امة واحدة » (١٠) . واطلقت في اية اخرى على جماعة من المسلمين يجمعها واجب موحد » ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (١١) . كما اطلقت على جماعات لها سمات معينة جاءتها رسل ، وان الرسول (ص) ارسل الى امة ، وان المسلمين امة،وهذا المعنى الاخير هو الذي عم استعماله فيما بعد فاصبح يقال « الامة الاسلامية » حصرا ولا يقال « الامة المسيحية » ، ثم تطور معنى الامة في الازمنة الحديثة فاصبح يستعمل بمعنى محدد يختلف عن المعاني السابقة . (١٢)

ومن الكلمات التي وردت في القرآن الكريم بعدة معان ، ثم استقرت بعد الاسلام بمعنى محدد ، كلمة « سلطان » . فقد وردت في واحد وثلاثين اية منها ثلاثة عشر اية بمعنى الدليل او البرهان واقترنت بكلمة « مبين » . ومنها عشرة ايات وردت بمعنى عام . وثمانية بمعنى صاحب السلطة ، غير

---

(٧) الانعام . الاية ٣٨ .
(٨) الزخرف : الاية ٢٢ ، ٢٣ .
(٩) النحل : الاية ١٢ .
(١٠) البقرة : الاية ٢١٣ . يونس : الاية ١٩ .
(١١) ال عمران : الاية ١٠٤ .
(١٢) يونس : الاية ٤٧ ، النحل : الاية ٣٦ ، المؤمنون : الاية ٣٤ ، غافر : الاية ٥ ، وعن تحليلات واستنباطات اوسع انظر « مفهوم الامة بين الدين والتاريخ » للدكتور ناصيف نصار ، و « الامة والجماعة والسلطة لرضوان السيد ص ٣٥ فما بعد .

انها استقرت بعد الاسلام على معنى واحد هو صاحب السلطة . وبهذا المعنى تردد ذكرها في كتب الفقه الاولى (١٣) .

وذكرت « الفتنة » بصيغة الاسم في اربعة وثلاثين موضعا ، وبصيغة الفعل في اثنين وعشرين موضعا . بعضها بمعنى الانحراف عن الحياة السوية ولكن اكثرها بمعنى اجبار الانسان على ترك دينه . ثم اقتصر استعمالها بعد الاسلام على الاضطرابات السياسية الجائحة ، وحلت في وصف المسلم الذي يترك دينه كلمة « مرتد » وهي قرآنية ايضا .

ومن هذا القبيل كلمة « امير » التي لم ترد في القرآن الكريم بهذه الصيغة . وانما جاء ذكر « الامر » بمعنى الشأن ، و « امر » كما تردد في الاحاديث فعل « امّره » اي جعله على الجيش ، غير ان كلمة « امير » اصبحت في صدر الاسلام تطلق على قائد الجيش الكبير او على ولاة الامصار الرئيسة .

ان التعابير التي ذكرناها اعلاه واشرنا الى ورودها في القرآن الكريم . وتطور مفاهيمها بعد الاسلام هي بعض ما يتصل بالسياسة التي اشغلت حيزا ملحوظا في كتابة التاريخ باعتبارها معبرة عن كثير من القوى المحركة للحكام والجماهير ، وذكر القرآن الكريم عددا غير قليل من التعابير المتصلة بها وتابع العرب استعمالها واسبغوا على كثير منها مفاهيم جديدة منوّعة .

ويمتد تطور مفاهيم المفردات الى ما يتصل بالادارة والنظم المالية ، ونورد على ذلك بعض الامثلة عن تطور مفاهيم عدد من هذه المفردات واختلافها عن مفاهيمنا المعاصرة فمن الامثلة على ذلك كلمة « عامل » . فقد وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل في ٣٦٠ موضعا . وبصيغة الاسم «عَمَل» في ٨١ موضعا وبصيغة عامل في

(١٣) انظر عن دلالاتها السياسية والادارية كتابنا « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » . الفصل الرابع .

١٣ موضعا وكلها مقترنة بالسلوك والتصرف الا في آية واحدة بمعنى منصب اداري مسؤول « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها » (١٤) . ثم اصبحت تطلق بعد ذلك ايضا على المسؤول عن انواع معينة من الاعمال الاداري كولاية السوق . والخراج ، وادارة المدن ؛ اما اليوم فان التعبير يطلق على من يعمل باجر دون ان تسري عليه احكام قوانين الوظائف .

ومن هذا القبيل كلمة « وظيفة » التي لم ترد في القرآن الكريم ، وكانت تطلق في صدر الاسلام على الضريبة المالية الثابتة التي توضع اجمالا على مدينة او جماعة او ارض . وتتميز عن الخراج الذي يتنوع تبعا للمنتوج ، اما اليوم فتطلق حصرا على العمل الحكومي الذي يؤدى وفق شروط معينة .

ومن ذلك كلمة « الخراج » التي وردت في القرآن الكريم مرة واحدة بمعنى عام « ام تسألهم خرجا فخراج ربك خير » (١٥) . ثم اصبحت تطلق على ما وضعه المسلمون على اهل البلاد والمفتوحة ، ثم خصت بما يفرض على الاراضي الزراعية في البلاد المفتوحة التي لم يتقرر عليها نوع اخر من الضرائب (١٦) . وكانت تطلق في المدينة . وربما في الحجاز عموما على مايدفعه العبد المأذون لسيده مقابل الاذن له بالعمل .

وقد تستعمل الكلمة الواحدة بمعنيين مختلفين في مكانين مختلفين فكلمة « حائط » وردت في القرآن الكريم بمعنى الجدار . وبهذا المعنى استعملت في في معظم ارجاء العالم الاسلامي . الا انها كانت تطلق في المدينة على المكان المزروع بالاشجار (١٧) . اي مانسميه في العراق البستان .

---

(١٤) التوبة : الاية ٦٠ .
(١٥) المؤمنون : الاية ٧٢ .
(١٦) عن استعمال الكلمة للتعبير عن الضريبة المفروضة على رؤوس الرجال (التي اصبحت تسمى الجزية فيما بعد انظر « الجزية والاسلام » لدينيت : الفصل الاول .
(١٧) انظر في ذلك : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي لفنسنك مادة « حائط » .

ويقابل ذلك تسميات منوعة لمسميات واحدة ، وقد اورد المقدسي في فصل اطلق عليه « الاشياء التي يختلف فيها اهل الاقليم» امثلة كثيرة عنها ثم قال « ونحو هذا كثير وان استوعبته طال الكتاب » (١٨) .

والواقع ان كثيراً من الكلمات التي يذكر اصحاب المعاجم لكل منها عدة معان . فان كل معنى كان سائد الاستعمال في زمن ما ثم حل محله استعمال بمعنى ثان . وقد جرت دراسات عن تطور معاني بعض الكلمات . ومن ذلك دراسة بشر فارس تطور معنى كلمة « شرف » (١٩) . ودراسة نالينو لتطور معنى كلمة « ادب » (٢٠) ، وجرت محاولات لاعداد معاجم تظهر التطور التاريخي لاستعمال الكلمات . واشهرها محاولات المستشرق فيشر الذي عمل على اعداد معجم لهذا الغرض . وجمع له جذاذات كثيرة ، غير انه لم تطبع منه الا قطعة صغيرة . وبذلك تبقى الحاجة اليه قائمة .

ومن مظاهر التنوع وعوامله اختلاف الكتّاب في نوع ومعاني التعبير التي يستعملونها . ذلك ان الكتابة انواع . فبعضها يجري فيه تدقيق في استعمال الكلمات . ويتجلى هذا التدقيق في كتابة الوثائق الرسمية الصادرة من الجهات المسؤولة كالمكاتبات بين الحكام ، او تدوين اوامرهم . او شروط المعاملات وخاصة في البيع والاجارات . والواقع ان كل ميدان فكرى يردد تعابير خاصة به وتثبتها اساليب التدريس كالاصطلاحات المألوفة لدينا في علم النحو من فعل وفاعل ، ومبتدأ وخبر ، وكالاصطلاحات المتداولة في كتب الفقه ، او البلاغة او الفلسفه . ويجدران نذكر ان هذه المصطلحات استقرت عبر مدة من الزمن يختلف طولها باختلاف المصطلحات ، ولم يتم استقرارها الا

(١٨) احسن التقاسيم للمقدسي ٣١ ــ ٣٢ .
(١٩) مباحث عربية لبشر فارس ٩٣ ــ ١١٦ .
(٢٠) تاريخ الاداب العربية لنالينو . الفصل الاول .

بعد اختيارها من مصطلحات متعددة كانت منتشرة قبل استقرارها الذي لم يقض كليا على المصطلحات السابقة ، فظل البعض يستعمل في النحو « الحامل والمحمول » .

وقد الفت في العربية كتب جردت وعرّفت التعابير المستعملة في بعض ميادين المعرفة ، كالبلاغة والاداب ، والفلسفة ، والفقه ، والطب ، والموسيقى ؛ غير انه لم يؤلف فيما اعلم كتاب شامل في التعابير الحضارية .

ان كتابة التاريخ لا تقتصر على استعمال الكلمات « الفنية » الدقيقة التي تصف المؤسسات الفكرية والاجتماعية والادارية والسياسية ؛ وانما تمتد الى استعمال مفردات لوصف الاحوال وتطورها ايضا ، فنطاق الكتابة التاريخية واسع ، وهو يتطلب معرفة مفردات كثيرة ومواضع استعمالها في جوانب متعددة من الحياة . وكثير منها متصل بحياة العامة وافكارهم ، ومعرضة للتنوع والتطور ، ولم نفرض على من يكتب التاريخ تعابير ملزمة الاستعمال . وبذلك أصبح كتّاب التاريخ احراراً في اختيار المفردات التي يستعملونها،وهي تعبر عن تكوينهم الثقافي اكثر من تعبيرها عن اتجاه مستقر محدد ، والغالب ان الكاتب يدون افكاره بانطلاق لا شعوري ، ومع ان كثيراً منهم كان له اطلاع واسع في اللغة والفقه ، الا ان حظوظهم من ذلك متباينة ، ونجم عن ذلك تنوع مفردات واساليب الكتابات التاريخية وقلة مراعاتها احياناً الفصاحة والدمه ، وهذا يظهر بصورة اجلى واوضح في الكتابات التاريخية في القرون المتأخرة التي ضعف فيها ضبط اسس الثقافة .

ان لكل كاتب ثقافته الخاصة التي يستمد اسسها وكثير من عناصرها من دراساته الاساسية ومن البيئة التي يعيش فيها ، وتبقى كتاباته معبرة عن « ذاته » و « شخصيته » « وكيانه » . وان اختلاف المفردات والاساليب التي يستعملها عما نألفه او نقدّره لا يعتبر مبررا لرفض ما يكتب ، وانما يتطلب

منا ان نفهم ما كتب ، ومن هنا جاء التنوع في الكتابات التاريخية ، والحاجة الى معرفة هذا التنوع ، وهي تتطلب سعة الاطلاع على ما انتج الكاتب ، ومعرفة روح العصر . فالجاحظ مثلا من أغنى المنتجين في الثقافة ، وقد وصف في كتاباته جوانب متعددة من الحياة في ازمنة متعاقبة ، واستعمل في كتاباته مفردات منوعة انفرد في كثير منها ، والفهم الصحيح لما كتب يتطلب معرفة شاملة لكتاباته ، اما بقراءتها او بالاعتماد على الموثقين ممن درسوها ، كما ان الفهم الصحيح لما كتبه مؤرخوا العهود المتأخرة يتطلب معرفة واسعة بكتاباتهم وبثقافة العصر الذي عاشوا فيه .

ازدياد المعرفة بالالفاظ الحضارية :ـ

ذكرنا ان المدونات المكتوبة هي اوسع وامتن اساس معتمد في دراسة التاريخ ، وان اول ما يتطلبه فهم هذه المدونات هو معرفة مفردات لغتها . ولا ريب في ان أبرز ما تتميز به الامة العربية هو لغتها التي تكونت وأستقرت مفرداتها وتراكيبها منذ ازمنة سحيقة . وكانت عامة ،وتجلت في القرآن الكريم وما وصلنا من الشعر الجاهلي ، واصبحت بعد الاسلام وتكون دولته لغة الحكام والدواوين والثقافة ، وجرت عليها دراسات واسعة استهدفت حصر مفرداتها وتحديد قواعدها بما يتجلى في المعاجم وكتب قواعد اللغة .

وقد احتفظت اللغة العربية بوحدتها العامة التي عززها القرآن الكريم والحكام وقدرتها على الاستجابة لحاجات الناس ، غير ان ارتباط اللغة بالحضارة عرّضها التطور بتطور الحضارة ، فاستمرارية الوحدة قام على الاتجاهات العامة فيها ،ولم يمنع حدوث تطورات داخلية ، محلية او عامة ، فيها . فالوحدة لم تكن قوالب صلبة جامدة ، وانما مظاهر مرنة ، وان الفهم الصحيح للمدونات المكتوبة يتطلب معرفة هذا التطور واخذه بنظر الاعتبار .

غير ان التطور الحضاري العام لم يقتصر على احداث تطور في مفاهيم كثير من مفردات اللغة « الفصحى » وانما امتد الى استعمال كلمات لم يدخلها

اصحاب المعاجم في معاجمهم لانهم لم يرونها فصيحة . وقد تشدّد بعضهم في معاييرهم للفصيح . فقصروه على ما جاء في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي وفي لغة الاعراب من بعض قبائل الجزيرة ، وخاصة من كانت ديارهم في الاطراف الوسطى والغربية من هضبة نجد ، والحجاز ، فاقصوا عن معاجمهم كثيرا مما كان مستعملا في اليمن وفي المراكز الحضارية الكثيرة في الاطراف الشرقية من شبه الجزيرة بالرغم من ان سكانها عرب ولغتهم العربية . وبعملهم هذا ابرزوا الصلة الوثيقة بين العربية والاعراب ، حتى كادوا يجعلونها مقترنين . واظهروا العربية وكأنها لغة الاعراب . فاقروا بما قاله هؤلاء الاعراب . وشككوا في مكانة ما استعمله اهل المدن حتى انهم وصفوا المفاهيم الجديدة والتراكيب القديمة بانها « مولدة » ووضعوها بما يشكك في مكانتها .

تبع توسع الدولة وامتداد العرب وانتشار لغتهم تطور حضاري عام وشامل اختلفت درجاته ومستوياته . ورافق ذلك ازدياد استعمال مفردات تعبر عن جوانب مادية واجتماعية وفكرية لما امتد اليه هذا التوسع . وكان كثير منها مما لم يكن مألوفا في الجزيرة . ويرجع بعضها الى اصول مرتبطة بالعربية في الازمنة السحيقة . الا ان بعضها مما كان مستعملاً في المجتمعات التي لايتكلم افرادها العربية ، ولا ريب في ان استعمال بعض هذه المفردات كان محلياً ومحدوداً ، الا ان بعضها انتشر استعماله في ارجاء واسعة من الدولة فاصبح عاما . وكان منها مقدار غير قليل مستعملا عند اهل بغداد التي كانت اكبر مركز حضاري وفكري في العالم الاسلامي ، علما بان كثيرا من هذه المفردات تعرض لتطورات غير قليلة شان مفردات « اللغة الفصحى » . وقد استعمل المؤلفون ، حتى المؤيدون للتشدد اللغوي ، هذه المفردات في كتاباتهم بصورة « عفوية » او « لاشعورية » وبمقادير متباينة (٢١) .

(٢١) انظر « من قضايا المعجمية العربية المعاصرة » لاحمد شفيق الخطيب .

وقد جرت محاولات لحصر هذه الكلمات ، فنشر دي غويه مجلداً الحقه بالطبعة التي اشرف عليها لتاريخ الطبري ، وذكر فيه عددا كبيرا مما ورد في كتاب الطبري ، واضاف معلومات عن اصول تلك الكلمات واماكن ورودها في بعض الكتب الاخرى،وفعل مثل ذلك ولكن بنطاق اضيق في طبعته لفتوح البلدان للبلاذري ، ومن هذا القبيل المجلد الرابع من المكتبة الجغرافية الذي ضم عددا كبيرا من المفردات التي وردت في كل من كتاب المسالك والممالك للاصطخري ، واحسن التقاسيم للمقدسي ، والبلدان لابن الفقيه الهمداني

وقام عدد من ناشري الكتب الثقافية باعداد فهارس في المفردات التي وردت في الكتب التي نشروها ، ومن امثلة ذلك مانشره الاستاذ عبد السلام هارون ملحقا بكثير من كتب الجاحظ التي نشرها ، وخاصة كتاب « الحيوان » و«البيان والتبيين» و«رسائل الجاحظ» ،اضافة الى مانشره الدكتور طه الحاجري مرفقا بتحقيقه كتاب البخلاء . وكذلك فهارس اللغة التي اعدها عبد السلام هارون ملحقة بالجزء الاول من نوادر المخطوطات ، وكتاب الموروث الشعبي في اثار الجاحظ » الذي اصدرته وزارة الاعلام العراقية

وفي هذا الميدان نشير الى الفهارس التي وضعها الاب انستاس الكرملي لما نشره من الكتب عن الاحجار ، والاكليل ، وكذلك فهارس الاستاذ عبود الشالجي نشره نشوار المحاضرة ، والاستاذ ميخائيل عواد الكتاب « رسوم دار الخلافة »

وتميزت الكتب التي نشرها الدكتور مصطفى زيادة والدكتور سعيد عاشور بفهارس واسعة عن التعابير الواردة في الكتب التي نشروها ، وخاصة « السلوك » و « اتعاظ الحنفا » للمقريزي ، و « مفرج الكروب » لابن واصل .

ونشر المستشرق دوزي معجما سماه « المكمل للمعجمات العربية » ضم عددا كبيرا من التعابير الحضارية التي يتردد ذكرها في الكتب العربية ولم تدخله المعاجم العربية القديمة المشهورة في مادتها ، كما نشر مجمع اللغة العربية في القاهرة مجموعة من المصطلحات الحضارية المستعملة اليوم .

اهمية كتب الفقـه :

ان هذه الانجازات استوعبت كثيراً من المفردات التي لم ترد في المعاجم العربية واستعملها العرب ابان ازدهار حضارتهم ، ولايزال ينتظر الباحثين الكثير مما لم يدرس بعد مما ذكره كثير من الكتب في مختلف ميادين المعرفة ، واخص بالذكر منها كتب الفقه ، وهي التي نطاقها واسع يشمل العبادات والعلاقات الاجتماعية والمعاملات والجنايات ، وميدانها عام يمتد الى كافة ابناء الامة دون الاقتصار على طبقة معينة او جماعة محدودة؛وذكرت هذه الكتب « مفردات » تعبر عن كثير من المعاملات والماديات من سلع ومنتوجات ونحن اذ نكتفي بالاشارة اليها فانما للفت النظر لثروتها الغنية التي لم يتم استيعاب دراستها بالرغم من جدارتها .

لقد قصرت على ذكر كتب الفقه الاولى ، واخص منها « الام » للشافعي و « المدونة » لمالك و « الجامع الكبير » و « الاصل » لمحمد بن الحسن الشيباني ، و «الاموال» لابي عبيد القاسم بن سلام ، واكتفى من الكتب المتأخرة بالاشارة الى كتب « الفتاوى » وكتب « الشروط » لما فيها من مادة مستجدة . اما بقية الكتب الفقهية الكثيرة المتأخرة فأكثرها تنقل عن الكتب الاولى وتتابع لغتها ، اما ما تميزت به من تحليل عميق وتعليل رائع فهـو ادخل في تاريخ الحركة الفكرية منه ببحثنا الذي يتصل بالواقع .

التعابير السياسية :

وللتعابير عن الاحوال السياسية وضع خاص بعضه ناجم عن كونها تتصل بالشعب من جهـة وبالسلطة العليا من جهـة اخرى ، ولذلك فانه مع ان اكثر

هذه التعابير عربية اصيلة الا انها كثيراً ما تتخذ مدلولات متعددة ، كما انها تتعرض الى احكام متناقضة فمعتنقوها والمؤيدون لها يرونها مقبولة او جديرة بالمديح ، وخصومها يرونها مذمومة ، ثم ان هـذه التعابير يختارها الناس عفوياً دون تدقيق ، ويراعون في الاختيار السمة البارزة فيها وقد لا تكون شاملة لكل سماتهـا ، يضاف الى ذلك ان كثيراً من هذه التعابير السياسية والاجتماعية متصلة بحياتنا الحاضرة ، واصبح بعضها يطلق على عدد من تنظيماتنا المعاصرة واتخذت مفاهيم جديدة مقننة ، فدراسة التعـابير التي تطلق على النشاط السياسي للجماهير متعددة واسعة متصلة بالواقع دون القانون ، فحدودها غير واضحة وارتباطاتها واسعة بالاحوال الاجتماعية والسياسية ، وهي متطورة تبعـاً للزمان والمكان ، ففهم ما هيتها وتقـدير دورها والحكم السليم المنصف لها يتطلب ادراكا لغوياً وفهماً سليماً لتطور المجتمع ، علما بان في القرآن الكريم عدداً كبيراً من هذه التعابير التي وردت بعضها في عدد غير قليل من الآيات ، وقد ذكرنا اعلاه بعض هذه التعابير .

ان التدقيق في استعمال التعابير والمصطلحات يكوِّن مشاكل متعددة ، منها مدى سلامة العربي الاصيل على المؤسسات المعاصرة . فكلمة « أمة » و«شعب» و « حزب » و « عامة » و « حرية » و « ظلم » هي مصطلحات قديمة ، ولكنها اتخذت في هذا الزمن معاني جديدة .

تعابير حـديثه لمؤسسات قديمـة :ـ

ثم انه تواجهنا عند كتابة التاريخ وجود مؤسسات كانت تعمل نفس العمل الذي تقوم به مؤسسات معاصرة لها مسميات متداولة ، ولكن لم تكن لها مسميات بالعربية ، او كانت لها مسميات غير مألوفة لدينا ؛ واضرب على ذلك مثلاً البنوك وهي مؤسسات فردية او جماعية او حكومية محور عملها الاقراض لاجل مقابل ربح يقرره نظامها ؛ وكلمة « بنك » التي عم استعمالها هي كلمة اعجمية مأخوذة من الايطالية بمعنى اللوحة الخشبية . ولعلها سميت بذلك لان

القائمين باعمـــالها كانت امام كل منهم عادة لوحة خشبية يضعـون عليها النقود ويحسبونها وقد ظهر هذا التعبير وعم استعماله منذ اواخر العصور الوسطى ، غير ان ممارسة الاقراض بنطاقات المحدودة او الواسعة قديمة جداً ، وقد مارسها العرب ولكنهم لم يطلقوا عليها هذا الاسم ، وانما اطلقوا على بعض اشكالها اسماء منوعة ، فالقائمون باقراض الفلاحين او الدولة النقود كانوا يسمون الجهابذة ، واللقرضون للافراد ببيعهم لأجل سلعة بثمن اعلى من سعرها السائد ، كانوا يسمون « المعينون » . وهي عمليـــة اقراض عليها ربح ، فهي نفس عمل البنوك اليوم ، فهل نستعمل عند كتابتنا تاريخ هذه المؤسسة كلمة «عينة» او «معين» كما سماها القدماء ، ام نستعمل كلمة « بنك » الدارجة اليوم .

ان معظم كتابة التاريخ . شأن كتابة المعارف الاخرى ، تتم بانطلاق الكاتب لا شعورياً في تدوين افكاره بالمفردات المألوفة في ذهنه ودون محاولة التدقيق في كل كلمة او فكرة . وهذا يجره الى ان يستعمل ما الف من تعابير كثير منها بمفهومها المعاصر . وبذلك تصبح كتابته واضحة ومفهومة للقارىء المعاصر . غير انها كثيراً ما تباعده عن الدقة ، لانه بذلك لا يفرض التعبير فحسب ، وانما يفرض معناه على وصف ما كان في الماضي مختلفاً عن الحاضر (٢٢).

يتبين مما ذكرناه ان فهم مفردات المدونات امر اساس في كتابة التاريخ . وان معاني الكلمات . وخاصة المتصلة بالحياة السياسية والادارية والاجتماعية والاقتصادية . تتطور على مر الزمان والمكان . ومن واجب كاتب التاريخ اخذها بنظر الاعتبار . وقد ادى اغفالها الى الوقوع في كثير من الأخطاء والتشويهات ، وقد يسر تزايد المصادر والتوسع في دراسة اللغة المجال لاصلاح هذه الأخطاء . غير انه بقي مقدار غير قليل يضع على الباحث عبئاً في معالجته واصلاحه ويكون مبررا ، لاعادة قراءة المصادر واعادة الكتابة .

(٢٢) انظر كتاب : « حرفة التاريخ » لمارك بلوخ .

تزايد المصادر

اولت المطابع العربية اهتماما بكتب التاريخ ،ومن طلائع هذه الكتب كتاب المكين الذي طبعه المستشرق الانكليزي بوكوك في اواسط القرن الثامن عشر ، ثم تزايد بعد ذلك طبع هذه الكتب في بلاد الغرب والشرق ، ورافقه ازدياد العناية بجمع المخطوطات وتنظيمها وتيسير الافادة منها ، وكذلك ازدياد الاهتمام باعداد فهارس عامة او خاصة بكتب التاريخ ، نذكر منها دراسة وستنفيلد التي نشرها في اواخر القرن التاسع عشر عن مؤلفات المسلمين في التاريخ ،وجهود كل من بروكلمان في كتابة « تاريخ الادب العربي » وفرتزروزنثال في كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » ، وفؤاد سزكين في كتابه « تاريخ التراث العربي » وسوفاجيه في كتابه « دليل الدراسات التاريخية» بالاضافة الى مئات الكتب التي ذكرت في دراسات خاصة محدودة كالذي نجده في دائرة المعارف الاسلامية وفي مقدمات عدد غير قليل من الكتب الخاصة باقليم او حقبة محدودة او شخصية بارزة او جانب من الحياة .

وتميزت بعض المطبوعات بدقة ضبط نصوصها ،وذكر القراءات المختلفة لبعض الكلمات ، والفهارس الغنية التي الحقت بها .

وضعت الكتب المطبوعة والمخطوطات المتيسرة امام الباحث مادة واسعة ، بعضها مما هو معروف ، وبعضها مما هو جديد ، فثبتت كثيراً من الحقائق التي كانت معروفة ، ودققت في ضبط كثير منها ، واضافت معلومات جديدة تغني او تعدل او تصحح مقداراً غير قليل مما هو معروف .

ان المعلومات المتزايدة في المطبوعات والمخطوطات القت اعباءاً ثقيلة على الباحث في التاريخ الذي اصبحت امامه مصادر كثيرة واسعة يتطلب استيعاب مادتها وتفاصيلها جهداً كبيراً ووقتا طويلا ، وخاصة اذا كان ممن ينشد تحقيق الكمال او الاقتراب منه ،والواقع ان في كثير من هذه المادة تكرار مضن تطيل الاشارة اليه البحث وقد تجعله مملاً ، او متيهاً للحقائق الجديدة .

ومهما حاول الباحث الاختصار في الجهد ، والتخير في القراءة والاقتباس، فان الاطلاع على هذه المادة الجديدة امر لازم لمن ينشد كتابة قريبة من الكمال . وهي تؤدي الى تناقص اهمية الكتب « القديمة » امام الابحاث الجديدة ، فتكون بذلك مبررا لاعادة كتابة التاريخ بما يستوعب ما في المصادر الجديدة من معلومات واراء .

تطور نطاق دراسة التاريخ وتوسع الدراسات في العلوم المتصلة به

كان التاريخ يعني بالحوادث السياسية البارزة والمتفردة ، غير ان مفهومه تطوّر واتسع نطاقه وامتد ليشمل نشاط الانسان في مختلف جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والمعاشية والفنية والفكرية ، وهو لا يركز على هذه الدراسات ، وانما يعني بعلاقتها بحياة الانسان ، فالباحث في تاريخ الاقتصاد يبحث عن التطور الزمني للنظريات والمعلومات الاقتصادية ، والباحث في تاريخ الفن يدرس التطورات التي حدثت في الفنون ويولي اهتماما خاصا بالجانب الذي كانت له مكانة او اثر ابرز في تطور الفن ، اما الباحث في التاريخ فيهتم بعلاقة الاقتصاد او الفن بحياة الانسان ، اي انه يأخذ من الاقتصاد وتاريخه ما يتعلق بحياة النـاس . وهـذا يخرج من نطاق بحث المؤرخ التعمق في النظريات والمعاملات الاقتصادية . وخاصة السائدة منها ، ولكنه يتطلب منه ان تكون له فكرة عامة عن هذا الجانب وقدرة على كشف علاقاتها بالانسان ، اي ان الباحث في التاريخ لا يقصر عمله على تدقيق المعلومات ، وانما يمد ذلك الى تكوين نظرة عامة اجمالية وشاملة لمختلف الجوانب التي يمتد اليها نشاط الانسان .

ولاريب في ان الدراسات الواسعة الحديثة في العلوم المتصلة بالتاريخ ابرزت افكارا واراء يمكن الافادة منها في توضيح ماهية النشاط الانساني وقيمتها في بيان اثاره .

الثبات والتغير

ان نشاط الانسان واسع في امتداده ، متطور في سيره ؛ فاما سعته فمن حيث شموله مختلف الميادين المادية والاجتماعية والفنية والفكرية ، واما التطور فمن حيث عدم جموده او انتظام سيره او ثبات تناسق عناصره ؛ فكل مجتمع يمر باطوار من النشاط الفعال والركود والجمود ، كما انه قد يعني في زمن ما بجانب او جوانب محددة من الحياة ، ثم ينقل عنايته الى جوانب اخرى ، وقد يكون هذا النشاط جماهيريا عاما واسعاً ، او قد يقتصر على فئات محدودة سواء كانت بيدها مقاليد الحكم او هي بعيدة عنه .

حاول عدد من المفكرين استنباط خطوط عامة لسير تطور كل امة او الانسانية جميعاً ، ونشروا في ذلك ابحاثا غنية بالمعلومات والافكار ، ومن ابرزهم ابن خلدون ، اما في الازمنة الحديثة فقد عرض في الغرب عدد من المفكرين صوراً لمسيرة البشرية ، وعززوا ابحاثهم بمعلومات وافكار غنية ، ولعل من اشهرها دراسات شبنجلر وتوينبي ، غير ان هذه الابحاث فيها معلومات واسعة قائمة على الحدس والتخمين ، فهي ادخل في الفلسفة منها في التاريخ ، ولم يكتسب اي منها الدرجة القطعية ، ولايزال الخلاف واسعاً عن مدى وجود « قوانين » صلبة تسير الانسانية بانماط مثبتة (٢٣) .

غير ان هذا لا يعفي المؤرخ من واجبه في الاطلاع على مختلف جوانب نشاط الانسان ، وتقديره لاهمية ودور كل جانب في كل فترة من فترات الحياة

المعلومات عن الافاق الجديدة :ـ

ان هذا التوسع الجديد في ميدان دراسة التاريخ يتطلب البحث عن مادة جديدة . وفهما جديداً لمجرى التطور .

---

(٢٣) انظر « القانون والاحتمال في التاريخ » لاشعيابرلين .

وفي كتب التاريخ السياسي عن الجوانب التي اصبحت تعني بها الدراسات التاريخية معلومات متفرقة تذكر عرضياً وفي الغالب لعلاقتها بالحوادث السياسية او بمن اسهم فيهـا ، فالكتابة الجديدة تتطلب ان تولي هـذه المعلومات اهتماما بجمعها ودراستها ، وهو عمل يتطلب تدقيقا وصبراً لمعرفة هذه المعلومات وجمعها وتحليلها .

ان المادة التي عن الجوانب التي يعني بهـا التاريخ الجديد والموجودة في كتب التاريخ السياسي ذا اهمية من حيث ان بعضها يبرز علاقة هذه الجوانب بالحوادث السياسية، غير انها عموما قليلة ومتفرقة وتذكر عرضيا ، ولابد لاغناءها وتوسيعها من مراجعة كتب اخرى يمكن وضعها بصنفين اساسيين احدهما كتب ترد فيها عن هذه الجوانب معلومات عرضية متفرقة ، والثاني صنف من الكتب مكرس لبحث احد هذه الجوانب بصرف النظر عن ارتباطاته بمجرى التطور العام للانسانية .

فاما الصنف الاول فيصعب حصره ، وهو يتوقف على مدى استطراد المؤلف في كتابته وتدوينه معلومات عن جوانب متعددة من حياة الانسان ، وتتميز ما نسميها كتب الاداب باحتوائها على معلومات منوعة غير قليلة ، ومن هذه « عيون الاخبار » لابن قتيبة ، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه ، و «نثر الدر» للآبي و«حكاية ابي القاسم» المنسوبة للازدي، و«الاغاني»لابي فرج الاصبهاني ، و«الامتاع والمؤانسة» للتوحيدي و «سراج الملوك» للطرطوشي و « بدائع البدائه » لابن ظافر الأزدي ، و «مطالع البدور» للغزولي ، و«الف ليلة وليلة» اضافة الى كتب الجاحظ والثعالبي ، والتنوخي ، وما كتب عن اخبار اصناف من الناس ، كالاذكياء ، والحمقى ، والمغفلين ، والبخلاء ، والعميان ، والنساء .

ان في معظم هذه الكتب معلومات مهمة عن جوانب متعددة من الحياة ولكنها في الغالب متفرقة وكثير منها يذكر عرضياً، ويتطلب جمعها متابعة واسعة، وقراءات كثيرة في مواضيع متعددة قد تشتت الذهن وتولد للسأم ونفوت اقتناص المعلومات .

وقد نشرت دراسات غير قليلة عن جانب او اكثر من الحياة في العهود الاسلامية ، وفي كل منها مجموعة من هذه المعلومات منظمة تبعاً لمواضيعها وألحق ان بعض الناشرين بالكتب التي نشروها فهارس بما ورد فيها من التعابير الفنية ، واضافوا بعض المعلومات عن هذه التعابير . وهي تيسر للباحث الحديث عمله ، غير انها ليست مستوعبة ولا شاملة . ولا يزال المجال واسعاً لجمع معلومات عن جوانب لم تحض بالاهتمام ، او لانماء معرفتنا عن جوانب اجريت عليها دراسات . ويساعد فهمها وتحليلها عن اكمال الصورة العامة عن هذا التطور .

والصنف الثاني كتب اختصت بجانب او عدة جوانب متقاربة من حياة الانسان ، ومن الامثلة على ذلك ما كتب عن الاموال ، او الزكاة ، من كتب مستقلة او فصول من كتب الفقه . وما كتب عن الوزارة او الوزراء ، وعن القضاة او القضاء ، وعن المدن والاقاليم او الولاة ، منفردة او مجموعة في كتب شاملة كالاحكام السلطانية للماوردي ، وللفراء ، وصبح الاعشى للقلقشندي ، وفي كل من هذه الكتب معلومات واسعة عما اختصب به . ولكن لا يمكن القول بان اياً منها مستوعب ، بالاضافة الى انها تبحث المؤسسة وقلما تبحث تطورها وعلاقاتها المترابطة بالمؤسسات الاخرى التي تكون حصيلتها حياة الانسان ونشاطه عبر الزمن .

المخلفات الاثارية ونطاق استعمالها :ـ

ان امتداد دراسة التاريخ الى جوانب متعددة من الحياة المادية يتطلب الاستفادة من المخلفات المادية في توضيح التطور التاريخي . وهي منوعة ومتعددة تشمل المخلفات الحجرية والمعدنية والنباتية مما استعمله الانسان في مختلف اغراض حياته من مسكن وملبس ومأكل ، ولتأمين حياته والدفاع عن كيانه ، وبمختلف المستويات الابتدائية والمتقدمة . وتبعاً لتطور انتشار استعمالها في مداه المكاني والزماني .

وكثير من هذه المخلفات لا تقتصر دلالاتها على نوع الحياة التي عاشها الانسان ومدى رفاهه او بؤسه ؛ وانما تدل ايضا على المستوى الذي وصله في التقدم التقني والصناعي ، وعلى بعض الاتجاهات الفكرية ومدى الاقتباس والتمازج ، او العزلة والاختلاط في الحضارات . فبناء الاهرامات في مصر لا يدل على مدى تقدم وسائل النقل والبناء فحسب ، وانما يدل ايضا على مدى تقدم علم الفلك ؛ ومعبد بعلبك لا تقتصر اهميته في الدلالة على الترف والرفاه واتجاهاته ، وانما يدل ايضاً على مدى تقدم التقنيات في قطع الحجارة والحيلة في نقلها ورصفها وفق صور مقبولة . والانهار والترع المحفورة في العراق تدل على مستوى عال من معرفة الماء وميزانه ، والتربة ونوعها . والارض وانحدارها .

تواجه الافادة من المخلفات الاثارية صعوبات غير قليلة يتوقف التغلب عليها على حسن الاستفادة منها فمن ذلك تحديد الغرض من استعمالها ومداه ، وتحديد تاريخ استعمالها ومدى انتشاره . وتقدير تطور علاقاتها بالانسان . وبالنظر لعدم وجود سجل مكتوب عن تاريخ معظمها ، فان معظم الباحثين يحددون تاريخها على اساس مشابهتها لما هو معروف تاريخه ، وهو اسلوب غير مضمون ويوقع في كثير من الاخطاء

ومما يزيد في اخطار تحديد اهميه هذه المخلفات في معرفة تطور الحياة الانسانية هو ان ما بقى من هذه المخلفات مما يمكن دراسته مقداره قليل نسبياً وغير منتظم التوزيع حسب الزمان والمكان ، فالمخلفات تساعد وتكمل ولكنها لن تكون اساسا شافياً للدراسات .

ضبط النص وفهمه وتطور طرق البحث :

اكد عدد من الباحثين المحدثين في قواعد البحث التاريخي على اهمية الوثائق ، وآمن كثيرون بصحة قول سينوبوس ان التاريخ وثائق ، فاذا ضاعت الوثائق ضاع التاريخ ؛ وافاضت الكتب المؤلفة في قواعد البحث التاريخي في شرح

الطرق الواجب اتباعها للتحقق من صحة الوثائق : من تدقيق في الورق والحبر والخط واللغة (٢٤) واسهمت المخترعات الحديثة وخاصة ما يسمى الفحص الكاربوني في تثبيت هذه الصحة ، وتمييز المزيف من الاصيل ، وكانت لذلك اهمية ملحوظة في تقرير قيمة بعض الآثار خاصة . كالاناء المنقوش الذي كان يعد من زمن الساسانيين وصار اساسا لدراسة الفن الساساني ، ثم تبين انه مصنوع في جنوبي روسيا في القرن العاشر الميلادي ، اي بعد اكثر من قرنين على زوال دولة الساسان ؛ وقصة تمثال سومري كان يظن انه اصيل ثم تبين انه مزور ؛ وانه مصنوع حديثا من حجارة لا توجد الا في شمالي اسبانيا . والامثلة في ذلك كثيرة يخرجنا التفصيل فيها عن نطاق بحثنا الحالي .

ويجدر ان نشير هنا الى الجهد الرائع الذي بذله علماء الجرح والتعديل المسلمين في ضبط احاديث الرسول (ص) . والقواعد الدقيقة الشاملة التي وضعوها لتحقيق هذا الضبط (٢٥) . غير ان هذه القواعد لم تمتد الى دراسة كتب التاريخ الذي تصعب مراعاتها حرفيا عند دراسته . فالشروط التي اشترطوا توفرها في الرواية من سلامة الحواس . ودقة الملاحظة . وحسن الادراك ، والصدق والامانة والدقة يصعب جداً تطبيقها على رواة التاريخ وكتاب حوادثه لعدم توفر المعلومات الكافية عنهم ، كما ان رفض ما كتبوه

(٢٤) من اهم الكتب الغربية في الموضوع « المدخل الى الدراسات التاريخية للانجلو وسينوبوس وقد ترجمه الدكتور عبدالرحمن بدوى ونشره مع فصول عن نقد النص ، وعن التاريخ العام ، ومقال في المنهاج لديكارت ، ونشرت مجموعة في كتاب « النقد التاريخي » .

(٢٥) انظر عن المؤلفات فيها « بحوث في تاريخ السنة المشرفة » للدكتور اكرم العمرى ، وانظر ايضا المقدمة التي كتبتها الدكتورة بنت الشاطيء لكتاب « مقدمة ابن الصلاح » الذى نشرته ، وهو من اوسع الكتب العربية في هذا الميدان .

وانظر ايضا « مصطلح التاريخ » للدكتور اسد رستم ، و « مناهج البحث عند المسلمين » لفرانز روزنثال .

لمجرد عدم تأكدنا من سلامتهم الجسمية والفكرية والخلقية سيؤدي الى فراغ كبير لا يمكن املاؤه أو تحقيق كتابة عنه ؛ والواقع ان أقيم البحـوث التاريخية تمت من ممارسات عملية لم يدقق كتابها في مراعاة الشروط التي وضعها المؤلفون في طرق البحث التاريخي (٢٦) .

دور الفرد : البطـل في التاريخ :ـ

ان نشاط الانسان الذي يدرس التاريخ تطور احواله عبر الزمن واسع النطاق . متعدد الجوانب : فهو يشمل الحياة السياسية والادارية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والفكرية . وهو يشمل الممارسات العملية والافكار النظرية والتفاعل بينهما . وعلى الكتابة التي تنشد الاقتراب من الكمال ان تعالج كافة هذه الجوانب ، كل بقدر دوره واثره .

ان الانسان كائن متميز . فهو « كل » ويكون وجوده « وحدة » تشترك فيها مختلف جوانب الحياة متداخلة ومتشابكة وبدرجات مختلفة . فقد يبرز جانب او جوانب محدودة . ولكن بروزها لا يعني انعدام الجوانب الاخرى . والباحث في التاريخ الذي يسعى الى تأليف كتاب شامل يلقى صعوبة فرز هذه الجوانب وتقدير نطاق اهمية كل منهـا ومتابعة ومدى التداخل بينهما . خاصة وان هذه الجوانب لا تتساوى في نموها ، أو في تتطورها . فقد يبرز جانب ما في زمن ما فيطغى على الجوانب الاخرى ، او قد يضمر حتى يكاد يختفي مما يزيد في صعوبة التقدير . ويكون معضلة للباحث الذي ينشد الكمال في الكتابة .

لاريب في ان الانسان هو اللبنة الاساسية في مسيرة التاريخ ، ففيه تقوم الاحداث وتتوجه التطورات ؛ غير ان الافراد لا يتساوون في ادوارهم في ذلك فكثير من الافراد دورهم محدود او رتيب . غير ان بعض الافراد يسهمون

(٢٦) يتجلى هذا التباين عند مقارنة الشروط التي وضعها لانجلوا وسينوبوس بالاساليب العملية التي اتبعها كرمب وشرحها في كتابه « حرفة التاريخ » .

في الحركة والتوجيه في جانب واحد او اكثر يادوار متميزة وقد تكون كبيرة ولها اثار دائمية؛وفي التاريخ امثلة كثيرة لرجال كان لهم دور واسع في توجيه من حولهم نحو وجهات ظل اثرها عميقا وواسعا وامتد امادا طويلة . بل ان عدداً منهم لايزال اثر توجيهه واضحا حتى اليوم والى ما شاء الله،ويكفي ان نشير في هذا الى اثر الانبياء والمصلحين الاجتماعيين فى اعداد كبيرة ممن تقبل دعوتهم وتوجه بارائهم . وكذلك عدد من رجال الحرب والحكم ممن حققوا انتصارات عظيمة وقاموا باعمال كبيرة ؛ ولعل من هذا المنطلق تألفت أكثر الكتب في اخبار الرجال وسيرهم،وعلى اساسه ايضا نظمت مادة كتب كثيرة في التاريخ تبعاً للحكام وتعاقبهم . ونسبت ما حدث في زمن من كل حاكم اليه . وآمن عدد من المحدثين بدور الفرد . فألفوا كتباً في توضيحه او في سيرة «البطل» .

لا ينكر دور الفرد وخاصة في الدول القديمة والوسيطة حيث كانت لافراد الحكام ، من ملوك وامراء . سلطات واسعة غير مقيدة ، وكذلك ظهور عدد من الموهوبين الذين كان لكل منهم دور بارز في اثارة الهمم ، وتوجيه الناس لاعتناق الافكار التي دعوا اليها وتحقيق الاهداف التي رسموها . ولا يصح ان يغمط حقهم وتنتقص مكانتهم ، ومقابل هذا لا يجوز تعميم « التفسير الفردي » على كل احداث التاريخ ، فالابطال قلة في كل زمان ومكان ، وسبب نجاح كثير منهم هو قدرتهم على فهم الاحوال العامة والافادة منها في نشر الافكار وجمع الانصار ، فمهما كانت براعة القادة العسكريين فان كثيراً من الفضل في نجاحهم يرجع الى من عمل بامرتهم لتنفيذ اوامرهم ، فكيف يستطيع قائد ان ينتصر بغير الجند .

ان تقدير دور « البطل » في العرض التاريخي لا يعني اهمال الاهتمام بتطورات الشعب ، فالانسان يعيش في المجتمع ويرتبط مع غيره بروابط

متعددة ومنوعة ، ويتبادل معهم التأثير ، ويتكيف سلوكه مع الجماعة التي يعيش فيها ، وكثيراً ما يتصرف ضمن الجماعة بما لا يتصرف به لوكان منفرداً .

الجماعة والامة

والاهتمام بما للفرد من ابداع او تصرف خاص وتنوع لا يحجب الاهتمام بدراسة دور الشعب بمختلف مكوناته العرقية والاجتماعية والسياسية ، وهذا الاهتمام هو ابرز ما يميز المفاهيم الحديثة في دراسة التاريخ وهو يتطلب جهودا كبيرة في جمع المادة عنه ، والافادة من دراسات العلوم الاخرى ، كعلم الاجتماع والاقتصاد والاجناس والانثرويولوجيا ، لتوضيح الترابط والتفاعل في حوادثها ومداها وتطورها ، مع تقدير سليم لاثر كل منها .

يرتبط افراد الامة والدولة والجماعات الكبيرة بروابط عامة ويتصرفون في كثير من جوانب الحياة باشكال متشابهة ، وبذلك يتسمون بسمات عامة تميزهم وتوحد مظاهر حياتهم . علما بان هذه المظاهر العامة تتعرض لتطورات تختلف سعتها وامتدادها وعمقها وسرعتها ، ولا تسير وفق انماط منتظمة او قواعد ثابتة ، لذا ينبغي تحاشي الاقتصار على مفعول عامل واحد عبر مدة طويلة من الزمن ، وانما واجب كاتب التاريخ متابعة هذا التطور ووصف احواله وتطوره دون الاقتصار على مظاهر الثبات فيه .

مهما كانت سعة وعمق الروابط العامة التي تربط الجماعات الكبيرة من افراد الامة او الدولة . فان عددا من المجموعات الصغرى التي ضمن الجماعة الكبيرة تكوّن روابط خاصة تظهرها متميزة في الجماعة الكبيرة ، وقد تكون هذه الروابط الخاصة مخالفة او مناقضة للروابط العامة ، وقد يكون لها مفعول قوي وطويل في حياة هذه المجموعات الصغرى التي ترتبط بروابط خاصة متعددة ومتداخلة . فالمرء قد يرتبط باسرته او عشيرته او حرفته او عقيدته السياسية والدينية او اتجاهه العلمي ، وترافق هذه الروابط اساليب في السلوك والعادات ، وهي اكثر

عرضة للتغير في المدن وفي ظل النظم التي تبيح الحرية ، غير ان المدن قليلة ، والريف اوسع ، وعدد من يتوزع سكناه في القرى اكثر ، والغالب ان المجتمعات في الريف تكون معزولة ، وخاصة في الازمنة القديمة حيث كانت وسائل المواصلات صعبة وسبل الاتصال قليلة ؛ غير ان هذا التنوع في الخصائص المحلية لايزال قائماً حتى اليوم ، فان التطورات الكبيرة في تيسير وسائل المواصلات وزيادة الانصالات ادت الى تعميم انتشار كثير من الممارسات والافكار في مختلف ارجاء العالم ، بين مختلف الاقطـار والمناطق والبقـاع من الصحـارى والارياف والمدن لدرجة اعتقد الكثيرون بان العالم تسوده اليوم حضارة عامة موحـدة ، وهي اراء قائمـة على مشـاهدات سطحيـة لو تعمقنا فيها لوجدنا ان التنوع في الحضارة العالمية الحديثـة قد لا يقل في عمقه ومداه عما كان في المجتمعات القديمة ، فان نمو الفردية وتشجيع الابداع انميا في مختلف جوانب الحياة المادية والاجتماعية والفكرية والفنيـة ، تيارات متعدده ومنوعة تخالف السمات العامة التي تشترك فيها الحضارة العالمية ، وكثير منها محلي في مداه ، ولكنه يعزز السمة الاساسية وهى وجود التنوع بجانب الوحدة ، وكل بحث تاريخي ينبغي ان لا يقتصر على السمات العامة الموحـدة ، وانما يجب ان يشير الى التنوعات المحلية ، مع تقدير متزن وسليم لامتداد واثر كل من الوحدة والتنوع ، وهذه النظرة الشاملة المتزنة لم تتوفر كثيراً في الابحاث السابقة التي كانت تقتصر على وصف الروابط والسمات العامة ، او على الخصائص المحلية فتعممها على حساب الاخرى ، وبذلك تقدم صورة غير دقيقة لاحوال البشرية وتطورها في المجتمعات العامة .

تحـديد الفراغات واملائها :ـ

مهما كانت كثرة الحقائق المثبتة صحتها التي نستطيع الحصول عليها ، فانها غير كاملة في كميتها ولا منتظمة في توزيعها وغير كافية لتوضيح كافة

ما نريد معرفته ، فقد تتوفر مادة واسعة عن بعض الجوانب ، وتشح او تنعدم عن حوادث وجوانب اخرى . وهذا الاختلال في كمية المعلومات لايتساوى دائما مع اهمية الحوادث ، فقد تتوفر مادة عن بعض ما لانرى اهمية له ، وتشح المادة عن بعض مانراه مهما ؛ والواقع اننا نفتقد المادة عن ازمنة عديدة وجوانب كثيرة من حياتنا واعمالنا في الماضي . وعن امور تدل الدلائل على اهميتها ، ولهذا اثر اوضح عند محاولة عرض تاريخ يمتد حقبة غير قصيرة او يشمل جوانب متعددة .

تتطلب الكتابة الجديدة معالجة هذا النقص في المادة ، وهي تتم اما بالاقتصار على تحديد النقص والاشارة اليه او بالحدس والتخمين في املائه . وللاشارة الى النقص اهمية فهي تنبه الى ما يستحق المعرفة وتلفت النظر اليه ، وبذلك تنبه الباحثين الاخرين الى الاهتمام به والعمل على توضيحه ، وقد ذكرنا من قبل ان مصادر المعلومات منوعة واسعة تصعب الاحاطة بها ، والمعلومات عن كثير من الجوانب مشتتة تقتنص بالصدفة ، فلفت النظر الى الفراغات ينبه الاخرين الى اهمية المادة عنها ، ليلتقطوا ما يجدونه عنها ويقدموا مادة متنامية قد تعين في المستقبل على توضيح ما ندرك جهلنا به .

وبالامكان ملء الفراغات بالحدس والتخمين أو بالاقتباس من مجرى حوادث اخرى مرت بالامة او بالامم الاخرى ، ولكلتا الحالتين فوائد واخطار ، فاما الحدس فقد يكون قائما على اساس سليم ، فأذا قلت ان القائد الفلاني انتصر على عدوه الذي قاتله ، فلا بد ان يكون له جيش بلغ عدده وقوته ما ضمن له الانتصار . اذ ان اي قتال لايمكن ان يحدث بغير مقاتلين ، واية حركة لايمكن ان تتم بغير رجال يسهمون فيها ؛ وتشييد الابنية الضخمة لايمكن ان يتم بغير خبراء في البناء ونقل الأحجار ورفعها ، ووجود تمثال او بناء من الحجر الاصم الثقيل في ارض رملية لابد ان يكون ناجماً عن نقل هذه الحجارة من المكان المتوفر فيه ، وبالامكان ايراد امثلة كثيرة على حدس قريب من الدقة يملأ كثيرا من الفراغات الناجمة عن عدم اشارة المدونات المكتوبة اليها

وتتوقف صحة الحدس على مدى فهم الباحث وعمق ادراكه وشمول نظرته غير انه يبقى عليه واجب التمييز بين ما استمد معرفته من المصادر وما ارتاه من الحدس وذلك باستعماله التعابير الدالة على ذلك كأن يستعمل في ما يحدس به تعابير « والراجح » او « ولابد » وامثالها . وقد تملأ الفراغات عن طريق الاقتباس من المعلومات المتوفرة عن حوادث مشابهة في تاريخ الامة او الامم الاخرى ، ولا ريب في ان هذا الطريق يتسع عند من يرى ان البشرية تسير وفق قوانين ثابتة المعالم ، وهو رأي يعني في تطبيقه تشابه الاسباب والنتائج للحوادث التي تبدو متشابهة.غير انه ينبغي عدم المبالغة في ذلك ، فميزة التاريخ التفرد، والتشابه في كثير من الحوادث المتباعدة ظاهرى غير تام،و«لكل حادث حديث» والواقع ان «التاريخ المقارن» مفيد لباحث التاريخ ،فهو ينبه الباحث الى جوانب او عوامل مؤثرة او نتائج محققة قد ينطبق بعضهـا على مايدرسه ، ولكن لايصح الاخذ بها حرفيا لان الحـوادث مهما كانت متطابقة في الظاهر ، فلا بد من وجود اختلافات بينهما قد تكون اعمق مما تبدو للعيان .

تقـدير الاهمية : الدوافع والاثار

ان جمع الحقائق والتثبيت من صحتها وفهمها فهمـاً سليماً هي المرحلة الاساسية الاولى في اي بحث تاريخي ، غير انها لاتكفي وحدها لاتمام الدراسة التاريخية ، فالكتاب الذي يقتصر على سرد هذه الحقائق هو اشبه بجداول مواعيد سير القطارات او دليل التلفون ، ولا يكون كتاب تاريخ بالمعنى الصحيح مالم يقدر قيمة هذه الحقائق ويبين علاقاتها بالحقائق الأخرى التي تعبر عن مختلف جوانب الحياة ،ويوضح ارتباطاتها بغيرها ومدى تأثيرها على مجرى الحوادث ضمن الهيكل العام الذي يعمل الباحث على رسمه وتوضيحه ، والصورة العامة لهذا الهيكل هو الهدف النهائي للكتابة التاريخية ، وهو يشمل شيئاً اكثر من مجرد رصف الحقائق ، وشأنه في ذلك كالبيت الذي وان كان يعتمد على متانة الطابوق والمواد المستعملة في بنائه الا انه يقوم على كيفية رصف وتنظيم الطابوق وبقية المواد ووضعها في موضعها الصحيح لتكون متكاملة ومتناسقة في مظهرها العام .

دوافع العمل :

اذا كانت معرفة الحقائق تعتمد على المصادر والمدونات . فان معرفة آثارها وارتباطاتها تتطلب معرفة طبيعة الانسان ، فهو المحـــور الاساسي في الحوادث التاريخية التي هي من صنعـــه وتؤثر فيه ، واهميتها قائمة على سعة وعمق تأثير هافيه بالاضافة الى ان الانسان هو الذي يدون اخبارها بالشكل الذي يريد . فالمعلومات عن كل حادثة وصلتنا عن طريق من كتب عنها وهو انسان له القدرة على اختيار الحقائق التي يعرضها ويضعها في الصورة التي يريدها ،اي انه يقدم عن الحادث صورة «مصفاة» في ذهنه وقد لاتتطابق تماما مع واقع ماحدثت عليه ، او قد تكون اهميتها الحقيقية مخالفة لما ذكر . ولذلك فان اي بحث في التاريخ يجب ان يأخذ بنظر الاعتبار دور الانسان في احداث الحوادث وتقدير آثارها والاخبار عنها .

والانسان كائن معقد ، يعيش في مجتمع معقد، لا يقتصر تصرفه على الاستجابة الغريزيه الثابتة للمؤثرات عليه ، وانما يتصرف في شكل الاستجابة وقوتها ، فاستجاباته للحوادث التي يتعرض لها لاتعتمد على مجرد غرائز تسير على نمط واحد يكون قانونا بسيطاً وقوياً ملزماً كأستجابة الجمادات على مايؤثر عليها ، وانما تكون استجاباته باشكال مختلفة وبقوى مختلفة ، وفي الحوادث الفردية امثلة لا تتناهى عن هـــذا التنوع ، فاذا شتمك انسان فقـــد تتقبل منه الشتيمة بترحاب او سكوت او امتعاض ، وقد ترد عليها بمثلها او اقوى منها ، وكل ذلك متوقف على « وضعك » و « حالتك النفسية » التي لاتجرى دائما على نمط واحد .

ومن خصائص الانسان تعدد جوانبه الفكرية من بصر مادي محدود الى تفكير عقلي عميق . كما ان استجاباته لاتتوقف على مجرد التفكير والادراك الايجابي ، وانما تتأثر بالخزين النفسي والعقلي الذي يؤثر في التصرف بقوة وبلا وعي ، وهو

مانسميه «للاشعور» . والواقع ان تكوين الانسان السلوكي والعاطفي والعقلي كان موضع اهتمام المفكرين منذ القديم ، ثم ازداد واتسع حديثاً واخـذت دراسته تتبع طرقاً وتستخدم اجهزة تيسر للباحث فيه الدقة في الفهم ، ولكن اكثر الجهود الواسعة في هذا الميدان الذي نسميه « علم النفس » لا يزال يعني بالجزئيات وشواذ السلوك ، ولم تصل الى الاحكام القاطعة والصورة الشاملة لسلوك الافراد والجماعة ؛ ولكنها مع ذلك قدّمت افكاراً لا يصح تجاهلها ، وهي تقضي ان يعيد كاتب التاريخ النظر في تقدير قيم الحوادث ودوافعها واثارها .

الاثار الفكرية والاجتماعية :

يمكن تتبع اثـار بعض الحوادث وخاصة السياسية والعسكرية لانهـا ظاهرة للعيان ولأن الاقدمين اهتموا بتدوينها ، غير ان تتبع الاثار الفكرية والاجتماعية اصعب ، فاما الفكرية فإن المتأخر يغفل عمداً او عن غير قصد ما اقتبسه من غيره ، علما بان اقتباس الافكار لايستلزم الاتصال المباشر في الزمان والمكان ، فقد تقتبس فكرة من اخر بعيد عنك في محل سكناه او في زمن حياته . كما ان لتوارد الخواطر ، اي ظهور فكرة واحدة لدى اثنين ليس بينهما اي اتصال مباشر ، اثر يصعب الجزم فيه . ومن بعض هذه العوامل جاءت صعوبة دراسة اصول العلوم الاغريقية وخاصة الافكار والمعارف التي عرضوها ولها شبيه بما كان عند من هم اقدم كالمصريين والبابليين ، وبالعكس من ذلك فان نسبة كثير مما ابدعه العرب للاغريق لمجرد وجود الشبه بينهما ومن دون ان يكون على هذه النسبة دليل ايجابي ، اوقع عـدداً من الباحثين وخاصة المعجبين بالحضارة الاغريقية والمتسرعين من باحثي الغرب في اخطـاء خطرة (٢٧) . يضـاف الى ذلك قلة من عنى بتدوين الافكار ومتابعة آثارها في الحياة مما لم يتفق عليه الباحثون بعد .

---

(٢٧) عند تفاصيل اوفي انظـر مقالنا « العلم الاغريقي » المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي .

اما الاحوال والتطورات الاجتماعية فمتابعتها اصعب ، اذ انها تتصل بحياة العامة من الناس ، فهم يعيشون فيها ويمارسونها عن وعي او لاشعور ، وتمتد الى السواد الاعظم والجماهير ، وتجري كالمياه الباطنية قلما يحس بها ، فلا تدوّن مظاهرها ، وممارستهـا تتصل بالعادات التي يألفها الناس ، فتوجه سلوكهم ، ويكون تبدلها بطيئاً وغير ملحوظ(٢٨) ،وخاصة في المجتمعات القديمة حين كانت وسائل الموصلات صعبة وسبل الاتصال قليلة ، وكثير من الناس يقضون كل حياتهم من الولادة حتى الوفاة في مكان سكناهم سواء كان قرية صغيرة او مدينة كبيرة ، فاغلب المصادر تدون حياة العامة ، بل حتى كتب الفقه التي عنيت بدراسة الجوانب الشرعية من السلوك والعلاقات الاجتماعية لم تستوعب وصف كل جوانبها، ولم تتابع تطوراتها ، ولم تسجل كل آثارها الواقعية . هذا فضلاً عن تداخل التنظيمات التي ينتمي اليها الفرد من اسرة وعشيرة ومحلة واصحاب حرفة وحزب سياسي او كتلة فكرية ، وتباين الاحكام التقديرية عليها .

التفصيل والاقتضاب :

ومن المسلمات انه لايستلزم في كتاب التاريخ ان يدون كافة الحوادث بالتساوي . وانما يقتصر على تدوين الحوادث المهمة ، وهذا يتطلب وضع معيار «للاهمية» . ولابد ان كل مؤرخ يدون مايراه في زمنه مهما ، ولهذا اختلفت الكتب في «نوع» الاخبار التي اوردتها ،فبعضها عنى بالشاذ من الحوادث الطبيعية ، كميلاد حيوان ذى راسين وامثال ذلك ، وبعضها عنى بما اثار اهتماما كبيراً عند حدوثه ، ونرى اليوم ان معيار الاهمية هو في مدى اتساع وعمق آثر الحادث في المجرى العام للحوادث . فالحادثة التي تؤثر في عدد كبير من الناس او الاوضاع ، ولمدة اطول تكون اهم من التي اثرها محدود في الزمان والمكان . وهذا المعيار قد يناقض معيار المعاصرين للحادث ،فقد تسبب حادثة ضجة عند حدوثها فيفصل فيها المؤرخ المعاصر ثم تنسى دون أن تترك أثراً واسعاً بعدئذ ولكن تبقى تفاصيلها

(٢٨) انظر ملاحظة تريفليان في كتابه « تاريخ انكلترة الاجتماعي » .

معروفة ، ممـا يلقي على كاتب التاريخ واجب اعادة تقييمها واعطائها المقدار الذي تستحقه .

يتطلب هذا المعيار اعادة النظر في ما وصلنا من معلومات عن حوادث ، فيختصر بعضها او يحذف ، ويفصل في اخرى ويبسط ، كما انه يحكم على المتقدم بالمتأخر ، وعلى الماضي بمعيار الحاضر . غير انه لاتوجد قاعدة شاملة ، وانما لايزال تطبيقها يعتمد على الرأي الشخصي للكاتب .

المعايير الاخلاقيـة :

-وكثيراً ما ترتبط الاهمية بالمعايير الاخلاقية ، فيقدر الكاتب ما يراه مرضياً لمثله الاخلاقية ، فيفصل فيه ويقتضب او يهمل ما يراه مخالفاً لمثله الاخلاقية ؛ وبذلك يقدم جانباً اوجوانب محدودة ، ويغفل ذكر جوانب قد يكون لها دور اكبر في سير الاحداث وتطور البشرية .

غير ان المثل الاخلاقية متعددة ، واحياناً متباينة او متناقضة،فالبعض يمجد الشجاعة والفروسية والقوة بل قد يمجد الاعتداء ، مما نجده مفلسفا عند شوبنهاور، والبعض يمجد التسامح الذي قد يصل حد الاستخذاء،والبعض يمجد التعاون ومساعدة الغير ، واخرون يمجدون الانانية ويفاخرون بها ، وفريق يمجد الفكر والعقل ، واخرون يمجدون العمل والتطبيق .

والمعايير الاخلاقية كثيرا ما لاينص عليها وانما تظهر آثارها بالمفردات المستعملة والتفاصيل المقدمة ، فالاوصاف المألوفة في الكتب لبعض الاشخاص مثل « الاكبر » او « العظيم » و « الباسل » او « الحكيم » هي تعبيرات عن عن التقدير والاهمية القائمتين على احكام اخلاقية .

وقد عبر الكتاب القدماء عن كثير من احكامهم الاخلاقية بالتفاصيل التي اوردوها عن الاعمال المتصلة بمثلهم الاخلاقية ، ومن الامثلة على ذلك ما يظهر من مقارنة كتابي « الطبقات » لابن سعد ، « و« انساب الاشراف » للبلاذري ، وهما اوسع كتابين عن الرجال العرب في القرن الاول الهجري ، . ولكن ابن سعد يفيض بالكلام عن الاتقياء الورعين ورواة الحديث ويخصص صفحات كثيرة

لمن عرف بذلك من الصحـــابة والتابعين ، ولا يتحدث عن كثير من رجال الادارة والسياسة كالخلفاء الامويين وولاتهم باكثر من بضعة اسطر . اما البلاذري نانه يفصل الكلام عن هؤلاء الرجال ولا يتطرق الى ذكر الاتقياء وعلماء الحديث والفقه والتفسير . علماً بان كليهما اعتبر كتابه عاما .

والواقع ان كثيراً من التعبيرات كانت من القوة لدرجة وقعنا تحت تأثيرها رغم مناقضتها لمثلنـــا الاخلاقية . فكتب التاريخ المـــالوفة تفصل في اخبار الحروب وانجازات القادة ، وتذكر النتائج الايجابية للحروب بما فيها من الانتصـــارات ، ولا تذكر آثار القتل والدمار وغرس الضغينة الذي يعاني منه العالم ويستهجنه . وهم يذكرون نجاح الحكام بصورة التمجيد دون الاشارة الى الاساليب اللاخلاقية التي سلكها بعضهم للحصول على تلك النجاحات .

هيكل كتاب التاريخ العام

تختلف الابحاث التاريخية في نطاقها ، فبعضها محدود في الزمان والمكان والجانب ، وبعضها واسع في المـــدة التي يبحثها والبلاد والشعوب التي يدرسها . وجوانب الحياة التي يوضحها . فاما الصنف الاول فيتطلب الدقة واستيعاب التفاصيل،واما الثاني فانه يكون الكتاب العـــام وهو يتطلب اختيار كمية المعلومات التي تقـدم وتقدير الجوانب التي تبحث وتحديد مدى الاقتضاب او التفصيل في كـل منهـا ثم تنظيمها على اساس واحـد ينسقها . ومن البديهي ان الغرض الرئيس من الكتاب العـــام هو كشف السلسلة التاريخية لسير البشرية واظهـار ما مر بها من حوادث وتطورات تشمل فترات الازدهار والضمور والحركة والجمود .

يقرر حجم الكتاب مقدار المادة التي يشملها ، فقد يكون واسعا يضم تفاصيل كثيرة . او صغيراً يضـم الحقائق العـامة ، والكاتب هو الذي يقـــرر حجم الكتـاب ومـا يتضمنه .

ومهما كان الكتاب العام كبيراً فانه لا يمكن ان يضم كافة الحقائق والمعلومات المتيسرة عن المواضيع التي يعالجها ، لذلك لابد للكاتب ان يختار مايراه مهما فيثبته في المتن ، اما ما يراه غير مهم او عرضي فقـد يثبت بعضه او يشير اليه في الهوامش او قد لا يذكره اطلاقا .

ومع ان اسلم معيار لتقدير أهمية الحادثة هو مدى تأثيرها وترابطها مع الحوادث الاخرى في زمنها وفي الازمنة التالية ، فان تقدير هذه الاهمية يعتمد على الكاتب وحكمه ، وفي هذا يختلف الكتاب في التقدير ، فقد يتأثر الكاتب في حكمه بالاحوال المعاصرة فيهتم بما هو سائد في عصره من افكار واتجاهات وينظر الى الماضي بمنظار الحاضر ، وفي هذا يقول بنديتوكروشي في كتابه « التاريخ قصة الحرية » ان كل التاريخ تاريخ معاصر ، اي ان كتابته تتأثر بالروح السائدة التي يعيش فيها الكاتب الذي عند سيره على هذا المبدأ يواجه مشكله اهتمام مصادره بجوانب غير التي يراها ، وقد يقضي ذلك عليه ان يقتضب ما فصلوه ، او يتبسط في ما اختصروه ، وهذا يتطلب استعمال الفكر والحكم الخاص ، وهذا يقود الى ان تكون كتابة التاريخ تطورية تبرز في كل زمن الصور العامة السائدة فيه ، وهذه لا شعورية قد تباعد عن الدقة .

ثم ان كتاب التاريخ العام ينبغي ان يبحث مختلف جوانب النشاط الانساني ويفصل في كل منها تبعا لاهميته التي يقدرها الكاتب تبعا للمعايير التي يتبناها ، وعليه في ذلك ان يوضح دور الجوانب التي يراها مهمة ، ولكن المصادر لم تقدم تفاصيل تتناسب مع اهميتها ، فعليه اعادة النظر في تقدير اهمية كل جانب وتطوره عبر مسيرة الزمن ، وهو يعتمد في ذلك على خبراته وارائه الشخصية التي تتوقف قيمتها على مدى عمقها واتزانها ومنطقيتها ، علما بان لكل عصر اهتماماته ، ولكل جماعة توجهاتها ضمن اطار التوجه العام .

تقسيم الكتاب :

ان مسيرة البشرية كالتيار المائي المتواصل في جريانه وغير المنتظم في مسيرته ، والاحداث الفاصلة في تاريخ الامم قليلة ، غير ان المنعطفات البارزة كثيرة ومتنوعة ، وقد يكون تأثيرها على كافة الجوانب بقدر متساو او يتوزع اثرها على مختلف الجوانب بقدر غير متكافىء ويتطلب توضيح العرض وتنظيم الكتابة تقسيم الكتاب الى اقسام قد تتباين في حجمها ومحتواها ، وقد يكون التقسيم الفلكي على السنين « الحوليات » او الحقب « العصور» اوضح التقسيمات ، غير انه قد يجزء البحث ولا يظهر التوازن ، ولابد من اتخاذ تقسيمات قائمة على اسس مقبولة .

وقد درج الكتاب على تقسيم مسيرة البشرية الى قسمين متمايزين يفصلهما ظهور الكتابة ، ثم قسموا التاريخ بعد ظهور الكتابة الى ثلاثة اقسام رئيسة هي التاريخ القديم والتاريخ الوسيط والتاريخ الحديث . وجعلوا الفاصل بين القديم والوسيط سقوط روما بيد البرابرة ، والفاصل بين الوسيط والحديث سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين او اكتشاف امريكا ، وبين الحدثين سنوات قليلة نسبيا (١٤٥٣ ، ١٤٩٢) غير ان هذا التقسيم اكثر انطباقا على تطور الاحداث في اوربا ، ولا يخلو تطبيقه على تاريخ الامم الاخرى ، وخاصة العرب ، من عيوب كثيرة . وقد وضع المؤرخون العرب تقسيمات منوعة اتبعوها ، فبعضهم اقام تقسيمه على السنين، وبعضهم على حكم الخلفاء والحكام والملوك،وبعضهم على اساس الدول،وحاول بعضهم الاخذ باكثر من تقسيم واحد ، وكل هذه التقسيمات قائمة على اساس الحوادث السياسية والعسكرية حيث ان احداثها بارزة للعيان ، وان كانت لا تتفق دائما مع مجرى التطورات الاجتماعية والفكرية . فالكتابة الجديدة تتطلب وضع تقسيمات عامة وفرعية قائمة على التبدلات او التطورات الواسعة في الحياة . وليس هذا المقال مكان البحث التفصيلي في الاحداث التي يحسن ان تكون اساس التقسيمات في كتابة التاريخ العربي .

الكتابة الاخيرة والاعداد للنشر :

تتكون الصورة النهائية للبحث عند كتابته الاخيرة،وكل بحث لو حقيقة او فكرة غير مدونة هي كالمعدومة ، وكل كتابة غير منشورة تقتصر فائدتها على كاتبها او مالكها ، فهي كأنها غير موجودة ، والكتابة تتطلب اختيار الكلمات المعبرة بدقة ووضوح عن الحقيقة او الفكرة المراد عرضها ، كما تتطلب اسلوبا مستساغا وتسلسلاً في تنظيم عرض الافكار وكل هذه امور تعتمد على درية الكاتب ، وليس لها قانون محدد معين، فالمترادفات في العربية كثيرة،والتعابير عن المؤسسات منوعة،والاساليب متباينة وتسلسل العرض يتوقف على ادراك الكاتب لتتابع الافكار وترابطها ، وفي العربية نماذج متعددة لاساليب الكتابة تمتد من التركيز الدقيق المحكم الى التبسيط الواسع الفضفاض ، ولكل كاتب اسلوبه ومنحاه ، ولكن الكتابة المقبولة تتطلب عموماً الدقة والتركيز مع الوضوح وتحاشي التعقيد والتكرار .

ذكرنا ان النشر هو الاداة التي نميز المخطوط عن المطبوع ، وطباعة الكتاب هي الوسيلة لنشره وتداوله ، وهي تتطلب من الكاتب الاهتمام بامور قد تبدو شكلية غير انها اساسية في توضيح الكتابة وتيسير فهمها ، وتقوم هذه الامور على وضوح الخط وحسن استعمال الفوارز والتقطعات ،وتحديد الفقرات التي تبدأ برؤوس الاسطر ، وتشكيل الكلمات غير المألوفة لتحقيق حسن الفهم ، وهي اساسية لاظهار الكتابة بالصورة المرضية . خاصة وان التقدم الواسع الحديث في فن الطباعة يعتمد بالدرجة الاولى على الصورة التي يقدمها الكاتب والتي يريد ان تعرض فيه المادة ، وعمل عمال الطباعة يقتصر على نقل المخطوط الى الطباعة فحسب .

خاتمـــة :

ان كتابة التاريخ تقوم على حقائق ثابتة مستمدة من النصوص المدونة والآثار المثبتة ، غير ان تقدير اهمية هذه الحقائق وتوضيح العلاقات بينها وتحديد ترابطها وآثارها وتخير ما يأخذه الكاتب منها وتنظيم الكتابة واسلوب العرض وشكل الهيكل العـام تتوقف كلهـا على خبـرات الكاتب وافكـاره . وكـل هـذه الامـور حقائق نسبيـة قابلـة للتحوير والتعديـل او التبـديل ، ومن هـذا كان نقص كفـاية ما كتب سـابقا وظهـور الحـاجة الى تجديد الكتابة على اساس ابقـاء الحقائق الثابتة واكمالهـا بما يستجد من المكتشفات . واعادة تقييمها وعرضها بنظرة فاحصة سليمة تستهدف تقديم صـورة لاحداث الماضي وتطوراته تكون اقرب الى الحقيقه وادق تعبيرا عن عن واقع مجرى تلك الاحداث .